نحو حوار عراقي-عربي

فاضل ثامر

تزداد الفجوة، هذه الايام، بين خطاب غالبية المثقفين العراقيين وخطاب شريحة غير قليلة من المثقفين والاعلاميين العرب، اذ يحس الكثير من العراقيين- وبشكل خاص من المثقفين ورجال السياسة والاعلاميين- بالحزن والأسى والخيبة من موقف عدد غير قليل من نظرائهم العرب إزاء ما يحصل في العراق هذه الايام، وبشكل خاص عدم اعتراف هؤلاء الأشقاء العرب بحق الشعب العراقي في التعبير عن رأيه بسقوط النظام الدكتاتوري ورموزه.

إذ نجد ان بعض هؤلاء الاشقاء ما زال واقفا في موضع الدفاع عن الدكتاتور المخلوع وينظرون اليه بوصفه (بطلاً قومياً ومجاهداً إسلامياً) وغير ذلك من الأوهام التي صاغها الإعلام الدكتاتوري لتسويقها الى الشارع العربي، بعد ان انكشف زيفها أمام الشارع العراقي.

ومن المؤسف أن تحصل فجوة كبيرة بين خطاب المثقف العراقي وخطاب المثقف العربي بإزاء هذه القضية الدقيقة والحساسة، إذ يشعر المثقف العراقي بأن من حق الشعب العراقي وحده أن يحكم على الذين يتربعون على كرسي الحكم في بلاده في هذه المرحلة أو تلك، ويعد من باب التدخل والوصاية والتطفل من بعض الأشقاء العرب محاولة إعادة تزكية وتسويق النظام الدكتاتوري الفاشي الذي تكشفت جرائمه بحق الانسانية وبحق الشعب العراقي والأمة العربية، وانكشف الجوهر الديماغوغي المنافق لخطابه ومحاولته الاستعانة بالشارع العربي على الضغط على الشارع العراقي لاعادة تسويقه وتزكيته بذرائع براغماتية واهية. أما المثقف العربي فما زال يعيش

أن يفتح عينيه بموضوعية ونزاهة على حجم الجرائم والانتهاكات التي ارتكبها النظام والتي تتمثل في سياسة المقابر الجماعية التي لم يشهد لها تأريخ البشرية مثيلاً وسياسة القمع والتعسف والاغتصاب التي مارسها زبانية النظام، إضافة الى سلسلة لا تنتهي من الجرائم التي يندى لها جبين الإنسانية كانتهاك الحريات وحقوق الانسانية والفساد الاقتصادي وسرقة أموال الشعب والفساد الأخلاقي والاجتماعي ومسخ المؤسسات والهياكل القانونية والاجتماعية والسياسية والثقافية للدولة والمجتمع ووضعها في خدمة نظام دكتاتوري فردي وعشائري لا يحترم إرادة الشعب العراقي، بل يعامله كقطيع جاهز للذبح والسلخ في اي من الحروب العدوانية المجانية التي يخطط الدكتاتور لشنها في أية لحظة إرضاء لشهواته التوسعية ومزاجه الدموي.

ولذا، ولكي لا تتسع هذه الفجوة بين الخطاب العراقي والخطاب العربي، لابد من إقامة حوار إيجابي بين الطرفين لكي لا يظلا يمارسان حوار الطرشان، فيظل كل منهما متمسكاً بقناعاته، من دون أن يحاول الإصغاء الى خطاب الآخر. ولعل من المفيد في هذا المجال عقد سلسلة من اللقاءات بين المثقفين العراقيين والمثقفين العرب وتوجيه الدعوة لعدد من الوفود العربية لزيارة العراق في وقت قريب للتعرف على رأي الشارع العراقي عن كثب وإرسال وفود عراقية الى عدد من البلدان العربية لإقامة مثل هذه الحوارات الضرورية في المرحلة الراهنة. مرة كنت أتحدث الى أحد الإعلاميين العرب، ولمست، بوضوح، هذه الفجوة بين خطابينا، ونبهته على ضرورة إعادة النظر في هذا التصوير المغلوط لنظام صدام حسين وللوضع الراهن، وأشرت الى أن معظم الاعلاميين العرب ينظرون الى البيت العراقي من الخارج فقط ولا يحاولون النظر الى هذا البيت من داخله والسعي للتعرف على أسراره ودهاليزه وهمومه الخاصة. وقد شعرت، آنذاك، ان بالامكان إيجاد نقاط مشتركة يمكن الاتفاق عليها وصولاً الى الحقيقة، وهو جهد يتعين بذله دونما كلل من جميع الإعلاميين والسياسيين والمثقفين العراقيين في حوارهم المفتوح المقترح مع أشقائهم العرب.

انني أشعر بكثير من الثقة بأن المثقف العراقي يمتلك الحجة القوية المدعومة بالاسانيد المادية والمعنوية للدفاع عن وجهة نظره في مثل هذا الحوار، وأنه قادر بالتدريج على كسب شرائح كبيرة من المثقفين العرب في هذا السجال. أمام أولئك الذين يرفضون الاصغاء الى صوت الحقيقة، أو يفضلون أن يضعوا رؤوسهم في الرمل مثل النعامة، فسوف يحاسبهم التاريخ، وسيأتي الزمن الذي سيعتذرون فيه للشعب العراقي جراء سكوتهم على الجرائم البشعة التي ارتكبها نظام الدكتاتور صدام حسين بحق الشعب العراقي والانسانية.

وبالتأكيد، ستظل على رأيها شريحة محدودة من الاعلاميين والسياسيين والمثقفين العرب الذين ارتبطوا، بصورة أو بأخرى، ارتباط مصالح بأشكال متنوعة مع النظام المخلوع، وكانوا (يتكسبون)- على حساب خبز الشعب العراقي وحريته- من هذا الدعم اللامحدود الذي كانوا يقدمونه الى أبشع دكتاتورية في التأريخ، التي لم يكشف من أسرارها وفصولها الدموية الى الآن الا ما هو ظاهر فقط من جبل الثلج، أما الجزء الأعمق من هذه الجرائم والانتهاكات فتظل تنتمي الى ذلك الجزء الأكبر الغاطس والخفي من جبل الثلج داخل البحر. وسيأتي الزمن الذي سيكون بامكان ذوي الضمائر الحية من ابناء الشعب العراقي والأمة العربية أن يكتشفوه بالتدريج.

ما بعد السقوط

قراءة في الشارع العراقي

ياسين النصير

قد تكون هذه القراءة هي الأولى التي تكتب عن الشارع العراقي بعد السقوط المشين لنظام القمع في العراق، فما نقرأه هو تقارير مراسلين وأخبار صحافة متعجلة وناس يظهرون في شاشات مسرعة يتحدثون عن أمور غير كافية للوقوف على تفاصيل الحياة اليومية لمواقف قد لا تثير انتباه أحد، أو آراء متدربين انتدبتهم قوات التحالف بعد أن دربتهم كي يصبحوا وزراء أو أنصاف وزراء، فوجئوا بأنهم مترجمون ليس الا!! ثمة لغة مضمرة في أفعال الناس اليومية تفصح عن اعتراض وتوجه جديدين لم نألفهما من قبل، لغة أقل ما فيها هو حجم الحرية الذي يظهر للعيان، وهو حجم لم تألفه الساحة العراقية منذ سبعين سنة، ثم حجم الصوت الذي تحمله لافتات من كل لون، وكأنه الصوت الذي كان مختبئاً في السجون وفي المقابر، وحجم المطلبية التي تعدت حدود المعقول لتصل الى المطالبة بالضمان الاجتماعي في بلد يصبح الأمن فيه هو الأول وكأنها تضع العراقيل برغم قصر الفترة أمام أي تحول جذري، ثم يأتي من يطبل لصدام حسين بادعاءات فارغة عن تركيبة مجلس الحكم الطائفية كما يفعل نصر الله وجنبلاط؟؟ كل ذلك الى حوار لغة متفائلة ولكنها متراجعة عما كانت عليه.

قراءتي هذه تنشد الرؤية من داخل بنية الإنسان والمكان، فتستدعي مفرداتها عينيك وفمك ولسانك وقلمك وقلبك أيضا. قراءة توفرها لنا يوميا مئات الحالات والصور والمشاهد التي تعرضها الفضائيات عن الشارع العراقي. فما حدث لم نستوعبه بعد ويحتاج الأمر لسنوات كي نفيق من الصدمة التي تركها نظام هيمن طوال أربعين سنة (8) شباط (1963) - (9) نيسان (2000) على العراق- وهي الفترة نفسها التي حكم بها فرانكو أسبانيا - وبالمناسبة لم تحتفل أي دولة بالعالم مثلما احتفل العراق بموت فرانكو، فنكس العلم العراقي وحدد حزنا عليه- هل ثمة تشابه بين من قضى على الجمهورية في أسبانيا ومن قضى على الجمهورية العراقية؟ أثمة تكرار ممل في التاريخ. فما يحدث في العراق اليوم قد لا يكون بريقه واضحا بعد لمن عميت أعينهم برغم كل التمنيات، فثمة تراجع عن المشروعات التي دبجتها قوات الاحتلال قبل أن تضع بسطالها فوق تراب الرافدين. وثمة تصورات جديدة قد تأتي من طبيعة وبنية الدولة الشرقية، تلك البنية التي ترفض أن تكون متشابهة مع بنى عقلية لحقيقة أن جدل الفكر الإسلامي لا يشابهه جدل آخر. فالديمقراطية وفق تصور المتخلفين هي ديمقراطية الانتخابات فقط، لذلك يسارعون للمطالبة بها متناسين أن الديمقراطية منظومة متكاملة، الانتخابات جزئية صغيرة فيها، وإلا فستعاد تجربة الجزائر ثانية. ما أردت أن أسجله في هذه الصور هو المشاهدات التي توفرها لنا وسائل الإعلام عن الشارع العراقي كي نرى التيارات الفكرية والمشهدية وهي تتجاور، تتحاور أحيانا وتتقاطع، لترسم عن طريقها الصورة التي نتلمسها في الشارع العراقي اليوم وهي الصورة التي يمكنها أن تنهض لتبني الحداثة بمعاونة الشيطان كما فعل جوته في فاوست، أو تنتكس كما يفعل سدنة الظلامية والمتخلفين السلفيين وأعوان النظام السابق والمتحلقين حول أحزابهم التي لم ينبت بعد شعر عانتها.

الصورة الأولى: المكنسة والتاريخ

في حال ملفتة للنظر تظهر المكنسة اليدوية بيد الطفل العراقي، وكأنها العلم الذي عليه أن يرفعه بوجه الكاميرا، مكنسة عادية ولكن فعلها على الأرض غير عادي. بدا الإنسان العراقي وهو ينظف مدخل بيته أو معمله أو دائرته أو الشارع القريب كأنه يستعيد هدوءا مفقودا ويبني من جديد عتبة داره بطريقة توحي بوجوده. فقد غيبه النظام من الظهور علانية خوفا من قوائم التفتيش والاستدعاءات اليومية لمقرات الجيش والمخابرات. لقد بدت المكنسة في يد الطفل كأنها بلدوزر لا تزيل ما تراكم من حكم البعث على أرض العراق فقط، بل وتنزع عنا الرؤية القديمة، وفي الصورة المنقولة لنا عبر الكاميرا ابتدت يد كبيرة جدا بحيث غطت الصورة الجدارية لوجه الرئيس المخلوع الملطخة بالطين السيال. لا نرى في الصورة المنقولة عبر الفضائيات التراب المتراكم الذي أزاحه الصبي من أمام عتبة بيته، فالتاريخ لا يجمع بسرميل، بل نرى في خلف الكادر تلا من الوجود البشرية من رجالات حكم البعث في العراق وقد نبتت عليها قطع حديد صدئة هي بقايا سيارات عسكرية محترقة، وأسلحة خربة، وأشلاء، وأكفان ولافتات سود بعضها من عام 1963 وبعضها من تواريخ متأخرة.

قال الصبي لحامل الكاميرا: انها تاريخهم. في اللحظة نفسها التي كان يتكلم بها توجهت عينا الصبي ومكنسته نحونا نحن الشاهدين وقد استطلعت دهشتنا، فقد كان يرانا ننظر اليه وكأننا نؤكد ما يفعله وهو يلوح بعفوية من تحت مكنسته بعلامة النصر.

في خلفية الصور التي تبدو لنا من خلال كاميرا محمولة لأحد مصوري تلفزيون الـ(CNN) أن الجندي الأمريكي يراقب ما يدور وعيناه على الشارع، بينما انسحبت يداه من زناد البندقية لتمسك سيجارة سومر التي بدت أهم من أي شيء آخر، وثمة ابتسامة رصدتها الكاميرا تلوح في أفق الشارع البعيد لأطفال يحملون لافتة لم تتضح عبارتها. فالجندي الأمريكي لم يكن من بيئة شرقية ولكنه ارتضى بحكم أن التطور يفرض وجوده على أرض غير أرضه ليدخن سجائر بلد آخر. التدخين عملية اندماج بين هواء الخارج وهواء الذات. هل كان الجندي الأمريكي غريبا عن نفسه وثقافته بحيث يتطلب الأمر خوض حرب كي يكتشف أنه حتى لو تعود على تدخين سجائر سومر العراقية غريب؟ في المخيلة الشعبية ثمة صور عن حال الغرباء الذين يفدون القرى وهم بأزياء مختلفة، وكنا نتجول معهم فرحين - مثل أطفال العراق وهم يتحلقون الآن حول الدبابة - كما لو كانوا آتين من عوالم أخرى فنطلب منهم حلا لأحوالنا المتعصبة ولرغباتنا المحبطة، فكانوا يبتسمون ويلوحون لنا بأيديهم ثم يغادرون بعد أن يتركوا ابتسامة على وجوهنا وأملا في انتظار عودتهم في العام القادم. متناسين أن الزمن ما عاد مثل الأمس عندما كنا نرضى بهدايا الحلوى كي نبيعهم آثارنا، بل أن الحرية تتطلب أحيانا اختلاف منفعية دامية وليس يدا تلوح، المفارقة أننا وبرغم كبر سننا- كأن الطفل المحبط فينا لم يغادر بعد- ما زلنا نحلم بذلك الزائر الغريب الذي سيحل مشكلاتنا المستعصية. في الايديولوجيا العراقية القديمة، المكان النظيف يستدعي ضيوفه. قال عامل مطبعة شيوعي وهو يفتح فاه أمام عدسة الصور: لايمكنك أن تزيح نظاما وتتكلم بلغته. فعل التنظيف الذي تظهره لنا عدسات المصورين لا يبدو عفويا، بل هو جزء من بنية ثقافة الإنسان العراقي الذي لولا الإزاحة المستمرة للقاذورات التاريخية لما بقي دجلة والفرات. وفي المحصلة قد يصبح كنس الشوارع ويرش الماء كمن يستدعي الزائر الغريب!!

ليس سؤالا هذا الذي انتهت اليه الفقرة السابقة، بل هو اقرار بأنه لا يمكنك أن تسوغ كلمة اعتراض واحدة وعتبة بيتك ممتلئة بغبار النظام القديم. عليك أولا كي تعترض وتتظاهر وتحتج وتطالب أن توجه خطابك على أرض نظيفة. فأي فعل لا يتحرك على أرض تعرفها ينقلب ضد صانعيه. هذا ما خلص اليه متحدث لمراسل إحدى الفضائيات مشيرا الى التخبط الذي تعانيه القوات المحتلة وهي تذرع الشوارع بحركة عجلاتها ناشرة الأتربة والدخان على عتبات البيوت والمخازن، معتقدة أن إزاحة نظام سابق هو المزيد من تراكم القاذورات وأوساخ جديدة. وبفعلها هذا ستصنع مثلا جديدا بمكنسة تاريخية جديدة!! وسنرى ثمة مصورين جددا يلتقطون لنا التاريخ.

الصورة الثانية: شاحنات وأكوام من القاذورات

أما الصورة الثانية فتريناها شاحنات قوات التحالف وهي تنقل أكثر من 800 طن من الأتربة والقاذورات لتبعدها عن أحياء بغداد مصحوبة بمصورين ومراسلين للإذاعات الأجنبية والعربية ينقلون عبر عدساتهم لنا مشاهد مقدمة الشاحنات التي ارتفع عليها العلم الأمريكي وصوت مراسل الـ CNN يقول أن كل منتسبي دائرة الإذاعة والتلفزيون والمسرح والسينما الذين نظفوا أمكنتهم وما حول مقابرهم والشوارع المحيطة بهم، وفي خلفية الكادر تظهر عدسة لمصور برج الإذاعة والتلفزيون وهو منحن مقطع الخطوط وكأنه يحاكي التمثال الذي أسقط. وخبر صغير يعرض على شريط سينمائي في أحدى الفضائيات يتحدث عن الممثل مقداد عبد الرضا وهو ينقل جزءا من أرشيف السينما والمسرح قبل أن يحترق راكضا على سلم المؤسسة والنيران تتبعه. فذاكرة العراقيين المحترقة بحاجة الى شهداء كي يحفظوها. التنظيف عملية تجديد وبناء هذا ما يتبادر الى ذهن المراقب، ولكنها في الوقت نفسه عملية تهيئة لما سيأتي على الأمكنة من جديد، ترى ما الجديد الذي هيأه العراقيون بمكانسهم التاريخية كي يحل في أمكنتهم؟ كنس الشوارع كمن يرش الماء لزائر مرتقب. ترى من هو هذا الزائر؟.. فهل استدعينا نحن العراقيين ضيوفنا؟

الصورة الثالثة: الروح العراقي

ثمة تكوين جمالي كامن في الروح العراقي الكبير هو أنهم لا يرفضون الضيف الأجنبي على أرضهم لوقت محدود، برغم أن ضيفنا هذه المرة قد خلصنا من طاغية القرن العشرين، ولولاه لما استطعنا أن نعيد تصورنا عن العراق من جديد، وعبثا ننكر أننا ضحية حتى هذا الذي حررنا، وأننا كنا من المنادين برحيله حتى قبل أن يأتي ولكننا واقعيون وواقعيون جدا بأن نرى المشهد في الشارع العراقي وهو يعاد تركيبه من جديد وقد دخلت فيه أقدام غريبة، وعلينا أن نعيد تصويره دون أن نحذف هذه الأقدام بطريقة قد تؤدي الى ثبوتها لأمد طويل كما يفعل مروجو العمليات الفدائية أو ما يسمى بالمقاومة والتيار الغيبي من الدعوات الدينية المتخلفة. ومن يستقرئ تاريخ تكوين المدن العراقية يجد أنها بنيت على أكتاف الحوار بين قوميات واديان وأجناس تجاوروا بالعمل، وعندما لا يصل الحوار الى نتائج جيدة تبدأ الثورة. وفي المخيلة الشخصية ثمة شواهد دالة ونحن نرى احتفالية ثالثة لمدينة بطرسبورغ الروسية التي الهمت غوغول قصصا عن شارعها الكبير "نيفسكي" فأظهر غوغول فيه وبلحظة شعرية نادرة عام 1889 قدم الفلاح الروسي الحافية مجانية لبسطال العسكري الأرستقراطي الروسي في تجاور لا يحدث إلا مرة في التاريخ بين ثقافة محلية لا تجيد القراءة وبين ثقافة أرستقراطية مطعمة بفرنسية وألمانية وصينية. فعندما لا تنهض المدن على أكتاف أبنائها المختلفين يحتاج البناء لاستدعاء من لا تحبهم أيضا. هذا ما فعلته الدول الأوربية في استدعاء ملايين الأتراك كي يبنوا مدنهم الجديدة في مشروع مارشال الذي يجري الحديث عنه في العراق. هذه المرة يحدث التجاور بين بسطال الجندي الأمريكي وحذاء العامل العراقي بعد أن اختفى من الشارع حذاء الجندي العراقي وهو محمل بتراب المعارك ودخانها. فالحداثة كما يبدو لا تنتقل الينا دون هذا التجاور. وخلف الصورة ترينا عدسة المصور صبيا وهو يتأمل المشهد بانتظار الفرصة لبقاء البسطال الأمريكي وحذائه كي يكنسه.

ليس مهما أن ترى الشارع العراقي بمثل ما تتمناه فمثل هذه الوقائع قد تفرض نوعا من النوستالوجيا المريضة، شخصيا أميل لأن يكون الشارع العراقي غير نظيف بالكامل من ماضيه، فثمة أوساخ من نظام قديم لا تزال قائمة فيه لتذكرنا كشواهد من زمن متخلف، وثمة أقدام جديدة تخطو في شعبه وأزقته ترينا كم نحن أحرار في اختيار خطواتنا، وثمة عودة للأقدام المغيبة الحفاة وقسر المشي ثانية فيه كي نرى كم كان أصحاب الحق مغيبين.

ولا بأس من أن نعيد جزءا من تاريخ ثقافتنا الوطنية لإسعافنا بما نجهله عن مكونات الوعي بالحداثة التي بدأت في أربعينيات هذا القرن ونمت في ستينياته وتطورت لاحقا الى تيار تجاور فيه السياسي والثقافي وتداخلا الى الحد الذي كتب فيه بيان الحداثة بلغتين متجاورتين في الجملة الواحدة. فقد جهد الروائي غائب طعمة فرمان في كل رواياته أن يكون تركيب الشخصيات فيها من تعددية للمحاورين وليس مصادفة أن يكون الحوار في كل رواياته بين خمس شخصيات هي مجمل تركيبة المجتمع العراقي وهذا الحوار المتعدد كان جزءا من بنية الرواية العراقية الجديدة وهي تنفتح نافذتها على مجتمع متعدد بطبيعته. وإذا كان التعدد سمة وطنية واثنية وجغرافية وهو ما يميز ثقافة ووجود العراق فلم نستكثر مثل هذه التعددية في تنوع الأقدام العابرة والمستقرة في الشارع العراقي.

الصورة الرابعة: سجائر كردية

في الصورة الرابعة من الطرف الآخر للمدينة تريك الكاميرا أكرادا وفدوا من مدن كردستان العراق لبغداد كي ينظفوا المدينة من أقذارها، هكذا جاء في لافتة مكتوبة بخط الرقعة. دون أن يغيروا أزياءهم الشعبية. الأكراد يبتسمون للكاميرا ولنا بالطبع، وخلفهم بدت بغداد نظيفة ومشعة وثمة صوت لشاب كردي يفهم منه أنه منذ عشر سنوات يعيش في بحبوحة من الحرية. ابتسمنا نحن الشاهدين، فالحرية تصنع أحيانا ولكنها حرية ناقصة كما يبدو فالأكراد لا يمكنهم أن يعيشوا والعراق منقوص الحرية. أتذكر هذا ونحن في أوربا وكنت في كل مرة أخطأ بالتسمية فأسمي كردستان بكردستان العراق، أو منطقة الشمال أو كردستان فقط. فينبري لي من يصحح الخطأ ليقول لي وبشيء من الغضب: أنها كردستان فقط، ليس الشمال وليس العراق.

أحزن ثم أبدأ بالحوار.

هذه المرة رأيت من خلال الصورة كيف تتجاور أقدام شعبنا في بحر شارعنا العراقي وهم يزيحون معا أتربة النظام والأقذار. ونعيد للأذهان صورة البسطال العسكري العراقي وقد شاهدته بعيني ونحن ذاهبون لمهرجان في كردستان، وهو يزيح قرى كاملة ظلت في وقتها أنها حرب عرقية وتطهير فانبرى لي كردي كان معي في السيارة ليقول:

لقد خرجت للتو من السجن ولا أحب أن تعود اليه.

قد لا يكون المشهد متكاملا أمامنا، فالكاميرا تتنقل من موقع الى آخر. أرى الآن صورة أخرى لبندقية انخفضت ماسورتها نحو الأرض، بينما بدا شروال الرجل الكردي الذي يحملها وكأنه شراع في بحر الشارع الموصلي. صورة ثالثة تظهر رجلا بزي كردي في أسواق جميلة وهو يحمل رزمة من نقود عراقية ودولارات، وقد وقف أمام سيارة حكومية يساوم لصا على سرقتها. الكاميرا لم تكذب، فقد تقدم اليه موفد قناة أبو ظبي ليحاوره عن سبب شراء السيارات الحكومية، فقال بالحرف الواحد: لدينا نقود، وثمة من يسرق ليبيع، فلماذا لا نشتري؟.

الشارع العراقي لا تصنعه المصادفات، كل ما يجري فيه مبني على تجاور التناقضات، وما دمنا لا نستطيع أن نقرر بأنفسنا الكيفية التي يكون عليها شارعنا، نترك الصور تتكلم عن أوضاع هي في صلب تشكيلة مرحلية لتاريخ قد يتغير أو يثبت، فالشارع حمالة الحطب العراقي قد يأتي من يشعل الحطب فيه، وقد يأتي من يشعله لشواء السمك "المسكوف". نحن بانتظار ما يحكمه تجاور الأحذية في الشارع العراقي.

أوراق

أين دفن ادوارد سعيد؟

حيدر سعيد

لا أدري لم فكرت لحظة بالمكان الذي دفن فيه إدوارد سعيد. ولكن السؤال بدا لي مدهشاً ومثيراً، وان الاجابة عليه -مهما كانت- ستكون مدهشة وثرية.

نفكر دائماً، ان البشر -في مفارقة وجودهم الكبرى- يوحدهم الموت، فوق هوياتهم وثقافاتهم وانتماءاتهم، فهو غريزة لا تحدها ثقافة ما او انتماء ما، مع ان هذا التصور قد لا يكون صحيحاً دائماً، فللموت سيماؤه الصارخة بالهوية، من طقوس الدفن الى الجسد نفسه (الداخل في الثقافة على نحو غريب) بسحنته ولونه وهيأته.

ولكن موت ادوارد سعيد بالذات يتحدى هذا التصور، لا لأنه موت خاص، بل لان سعيد أراد ان يجعل الحياة والوجود نفسيهما خارج الهوية والانتماء والثقافة الخاصة، ولان تأريخه الشخصي كان -على نحو مؤثر- في هذا (الخارج). من هنا وضع سعيد عنواناً بالغاً لسيرته الذاتية التي اصدرها سنة (1999)، هو (خارج المكان)، تلك السيرة التي لم ترتبط بمكان ما. غير ان (خارج المكان) لم يكن هماً ذاتياً شخصية لسعيد حسب، بل انه اراد ان يكثف فكرة (الهجنة) و(اللاأصالة) و(تعددية الانتماء)، التي أصبحت أمراً محتوماً على العالم المعاصر.

ومن يفكر، الآن، في اصالة ما او انتماء أحادي ما فانه يفكر في ماض مندثر لم تبق منه الا بقاياه السردية والخيالية.

كتب ادوارد سعيد كتابه هذا في وقت اشتد فيه مرضه الذي قاده الى الموت. بل لقد خرج هذا الكتاب من محنة المرض. فلم تتبلور فكرة كتابة السيرة الذاتية لديه إلا بعد اكتشاف اصابته باللوكيميا. فلربما كان هذا الكتاب تشبثاً منه بالحياة ومعاندة عليها. ولكن، ان يكون هذا الكتاب وسيطاً الى آخر يعني انه يجب ان يخرج على معناه السايكولوجي الفردي. ومن ثم، قد يكون هذا الكتاب وصية من سعيد الى العالم، او حكمة يتركها الى هذا العالم.

وقد كان (خارج المكان)، العنوان والفكرة، هو خلاصة هذه الحكمة، بتمردها على الهوية، بلا أصالتها وهجنتها وتعدديتها.

ولكن، هل فكر سعيد، في تلك اللحظة، بالمكان الذي يريد ان يدفن فيه، وقد أصبح الموت هاجساً حاضراً؟ هل كان قد اتخذ قراراً في ذلك؟ كيف يمكن ان يجمع بين ان يكون (خارج المكان) و(داخل الارض)، هذا الداخل الذي لا بد ان يكون محدداً ومتعيناً وابدياً؟ هل فكر في معنى هذا المكان المحدد والمتعين والابدي؟

يمثل هذا التعارض نقطة الاثارة والثراء في السؤال عن المكان الذي دفن فيه سعيد.

كنت أفكر: لم يحرم هذا القدسي من ان يدفن في مدينة آبائه وطفولته، مع انها لم تكن الا وهماً وماضياً مندثراً؟ أو لم لا يدفن في نيويورك، مدينته الحقة، التي عاش فيها سنوات عمره، وفيها ألف وكتب ودرس وناضل، وهي التي منحته فضاء حرية القول الذي لم تمنحه اياه أية مدينة أخرى؟ أو في بيروت، التي تزوج من أهلها، وعايش معهم محنة الغزو الاسرائيلي وفيها تعلم لغة آبائه، ومن جنوبها رمى حجارته الشهيرة على اسرائيل؟

مهما كانت الاجابة ستكون مدهشة وثرية.

لقد وضع رماد إدوارد سعيد (بعد ان أحرقت جثته على موضة المثقفين الغربيين الملحدين) في لبنان، بناء على وصيته.

الاجابة مدهشة وثرية بأي شكل كانت. فها هو سعيد يكون داخل مكان ما... داخل معنى هذا المكان.

ها هو يغادر نيويورك، ويعود الى لبنان.. قريباً من فلسطين، كأنه خنجر خاصرة، او حجارة بانتظار أن ترمى، او معنى بانتظار ان يقال.

ها هو ادوارد سعيد، المواطن الامريكي، وابن المجتمعات الغربية، والعارف بنظريات العقل الغربي، والداعي الى الهوية المركبة لان المجتمعات الغربية ما بعد الكولونيالية لا يمكن ان تفهم الا هكذا: بهوياتها المركبة والرجراجة والهجينة، ها هو يعود الى التراب العربي، قريباً من ماضيه المندثر، من أوهامه وسروده ونوستالجياه.

ها هي شاهدته تكتب بالعربية، اللغة التي لم يكتب بها وتعلمها في مرحلة متأخرة من عمره.

هل كان هذا اختياره بحق؟

هل لهذا الاختيار معنى ما؟

هل هو هذا المعنى؟

ها هو سعيد يغادر المنفى في موته، بعد ان تشكلت حياته بوصفه منفياً، وكان المنفى فضاء حياته ومعناها.

فهل يمكن أن يكون (خارج المكان)؟

هل يمكن، إذن، أن نكون خارج المكان؟

لست متيقناً من أي شيء. ولكنني أخشى أن يكون ذلك خرافة او وهماً، او -في الأقل- (حقيقة)، لا يمكن الوصول اليها.